

المعنى، التأويل و التفسير

قراءة في المفاهيم

الدكتور: خربوش عبد الرحمن - جامعة تلمسان

أوحت المعاني اللغوية للألفاظ الثلاثة (المعنى، التفسير، التأويل) إلى كثير من اللغويين بالتقارب بينها أو اتحاد معناها.

لقد عقد ابن فارس بابا عنوانه "معاني ألفاظ العبارات التي يعبر بها عن الأشياء " قال فيه: «ومرجعها

إلى ثلاثة و هي المعنى و التفسير و التأويل و هي إن اختلفت فإن المقاد متقاربة»(1)

و قال ابن الأعرابي: إنها بمعنى واحد، و هو ما رواه الأزهري عن أحمد بن يحيى (2)

من أجل تبيان و توضيح تقارب المعاني نقف عند المعنى اللغوي لكل منها:

أ- المعنى: هو القصد و المراد، يقال: عنيت بالكلام كذا أي قصدت و عمدت (3) و معنى كل كلام:

مقصده (4). و قال قوم: اشتقاق المعنى من الإظهار يقال: عنت القرية إذا لم تحفظ الماء بل أظهرته،

و عنوانه الكتاب من هذا (5) و هذا الاشتقاق الأخير يجعله أقرب لمعنى التفسير.

ب- التفسير: و هو البيان و الكشف و الإظهار و مثله الفسر، يقال: فسرت الشيء (6)، أفسره

تفسيراً و فسرته أفسر فسراً بمعنى ابنته و التفسير كشف المغلق و إيضاح المبهم.

ج- التأويل: مرجع الأمر و مضيره و ما تؤول إليه عاقبته، مأخوذ من آل يؤول إلى كذا بمعنى صار

إليه. و على هذا المعنى حملوا قوله تعالى: «و ما يعلم تأويله إلا الله» (7) أي لا يعلم متى يكون

البحث و ما يؤول إليه الأمر إلا الله.

هذه هي المعاني اللغوية للكلمات الثلاث و يظهر أن الذي يجمعها في تفكير الأئمة هو

الغاية من الكلام و الهدف المقصود من التركيب إذ الغاية من ذلك هي فهم المعنى و إيصال المراد إلى

المخاطب و ما يستعمل التفسير و التأويل إلا لذلك.

فهذه الألفاظ الثلاثة و إن اختلفت في المأخذ اللغوي فإن المقاصد به متقاربة، فالتفسير والتأويل مصدران يعبران عن حدثين لإظهار المعنى و المارد من الكلام فهما مترادفان لأن بيان مرجع الأمر و مصيره ما هو إلا تفسير له و كشف لمعناه.

أما اصطلاحاً فقد اختلف العلماء في معناها فبعضهم يرى أنها متساوية و لا فرق بينهما: الفراء و الزجاج يستعملان التفسير المأثورة بينهما الطبري يستعمل كلمة التأويل كما فعل في تفسيره العظيم "جامع البيان عن تأويل القرآن".

و هناك من العلماء من يرى أنها متغيرتان فالتفسير عندهم يخالف التأويل بالعموم والخصوص و هو أي - التفسير - أعم مطلقاً، فالتأويل بيان مدلول الكلمة أو التركيب بغير المتبادل لدليل و التفسير بيان مدلولها بالمتبادر أو غير المتبادر.

و أكثر ما يستعمل التأويل في المعاني و الكتب الإلهية و التفسير يستعمل فيها و في غيرها. و قد صحح الزركشي التباين بين الكلمتين فنقل عن بعض العلماء التعريف الآتي للتأويل: «التأويل صوف الآية إلى معنى موافق لما قبلها و ما بعدها غير مخالف للكتاب و السنة» (8) فهذا الاتجاه هو ما يوحى به قول الليث: التأويل و التأويل تفسير الكلام الذي تختلف معانيه و لا يصح إلا ببيان غير لفظه" (9)

و قول ابن الأثير: "و المراد بالتأويل نقل ظاهر اللفظ عنهم وضعه الأصلي إلى ما يحتاج إلى دليل لولاه ما ترك ظاهر اللفظ (10) و العلماء يذكرون للتفسير ألواناً من التعاريف في اصطلاحهم تلتقي كلها حول كشف معاني القرآن الكريم و ما يحتاج إليه من أحكام أداء ألفاظه و بيان مدلولاتها و أحكامها الإفرادية والتركيبية و قد عرفه الزركشي بقوله: "وأعلم أن التفسير في عرف العلماء كشف معاني القرآن وبيان المراد منه، أعم من أن يكون بحسب اللفظ المشكل، و غيره وبحسب المعنى الظاهري وغيره" (11)

فالتفسير إذا هو محاولة الإنسان فهم كلام الله عز و جل و البيان عن معانيه و إيضاحها للناس قدر طاقته و ما تسمح به إمكانياته كمخلوق يفسر كلام خالقه، و يمكن أن أقول مما تقدر أن أجمع تعريف للتفسير و أوجزه هو: علم يبحث فيه عن القرآن الكريم من حيث دلالاته على مراد الله بقدر الطاقة البشرية (12)

أما مصادر التفسير فقد ذكر أصحاب "علم القرآن" أن أهمها أربعة:

أ- النقل عن رسول الله (ص) و هو المثل الأعلى و الحذر فيه واجب لكثرة الضعيف فيه والموضوع، حتى قال الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه: ثلاثة كتب ليس لها أصول: المغازي والملاحم والتفسير. (13)

ب- الأخذ بقول الصحابي: الصحيح عند علماء التفسير اعتباره حجة في تفسير آيات الذكر الحكيم لصلة الصحابة -رضوان الله عليهم- بالرسول - ص -، و نفس الأمر ينطبق على أقوال التابعين في التفسير فغالب أقوالهم تلقوها عن الصحابة.

ج- الأخذ بمطلق اللغة: هو وسيلة اللغويين في تفسير القرآن الكريم و طريقهم في تأويله. و قد قال بعض العلماء بجواز تفسير القرآن بمقتضى اللغة.

د- التفسير بالمقتضى من معنى الكلام و المقتضى من قوة الشرع: و قد دعا الرسول -ص- بهذا النوع من التفسير لابن عباس بقوله "اللهم فقه في الدين و علمه التأويل".

أما أقسام التفسير فقد روى الإمام الطبري عن ابن عباس رضي الله عنها قوله: "التفسير على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها، و تفسير لا يعذر أحد بجهالته و تفسير يعلمه العلماء و تفسير لا يعلمه إلا الله تعالى ذكره (14)

و بناء على ما تقدم فقد جعل علماء القرآن أقسام التفسير أربعة هي:

أ- ما لا يعلمه إلا الله تعالى:

و هو ما يتصل بأمور الغيب كآيات المتضمنة قيام الساعة و أحوال الآخرة، فلا مجال للاجتهاد في تفسيره و لا يمكن معرفته إلا بالتوقيف من أحد ثلاثة أوجه: إما نصب من تنزيل أو بيان ممن النبي -ص- أو إجماع الأمة على تأويله.

ب- م لا يعذر أحد بجهلك

و هو ما يبادر إلى الإفهام معناه من النصوص المتضمنة شرائع الإسلام و دلائل التوحيد و كل لفظ أفاد معنى واحد جلياً يعلم أنه مراد الله سبحانه و تعالى.

ج- ما تعرفه العرب في كلامها:

و هو ما يرجع فيه إلى لسان العرب و أساليبها في الخطاب و مرجعه إلى أمرين: اللغة و الإعراب.

د- تفسير العلماء:

و هو ما يرجع إلى اجتهاد العلماء و يغلب عليه إطلاق التأويل و هو صرف اللفظ إلى ما يؤول إليه و يؤخذ منه، فهو استنباط الأحكام و بيان المحمل و تخصيص العموم.
و يمكننا بعد الذي تقدم ذكره أن نميز بين قسمين رئيسين للتفسير و هما:
أ- التفسير المأثور: و هو ما جاء في القرآن أو الحديث أو كلام الصحابة بيانا ملل جاء في القرآن الكريم فهو إذا يعتمد على ثلاثة مصادر.

ب- التفسير بالرأي و الاجتهاد فيما لم يرد فيه نقل صحيح من التفسير الأثرى وطريق التوصل إليه النظر و استعمال الفكر وفق العربية و ما يستلزم أسلوب العرب في كلامها و عظمة القرآن و قدسيته.
أما الحديث عن شروط التفسير، فقد اشترط العلماء ليكون التفسير العقلي جائزا أن يكون المفسر جامعاً للعلوم الآتية و متمكناً من معرفتها فقيهاً في أصولها عالماً بدقائقها و هي بإجمال:

- 1- اللغة
- 2- الاشتقاق
- 3- الصرف
- 4- النحو
- 5- المعاني
- 6- البيان
- 7- البديع
- 8- أصول الفقه
- 9- أصول الدين
- 10- علم القراءات
- 11- النسخ و المنسوخ
- 12- الفقه
- 13- أحاديث التفسير
- 14- أسباب النزول و القصص التي لها تعلق بآيات القرآن الكريم

15- علم الموهبة: و هو علم يورثه الله تعالى لمن عمل بما علم و إليه الإشارة بحديث:

"من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم" (15)

هذه هي العلوم التي اشترطها بعض العلماء في المفسر و هي علوم جليلة و لكل واحد منها وظيفته و دوره في تحقيق التفسير الجائز.

و لعله من الواضح أن التبحر في هذه العلوم مجتمعة و الإمامة فيها كلها غير ممكن لأحد وهو ما يشهد به تاريخ هذه العلوم و بناءا عليه فإن اشترطها على هذا النحو الواسع يكون نظريا أكثر منه عمليا كما أن بعض هذه العلوم مثقل بمصطلحات علمية و يختص بجزء الأحكام من القرآن ويؤخذ من أصول الفقه، و معظمه في الحقيقة راجع لعلم اللغة إذ هو شيء يتكلم فيه على أوضاع العرب و لكن تكلم فيه غير اللغويين أو النحويين و مزدوج بأشياء من حجج العقول (16).

إن فهم حقائق الألفاظ المفردة التي جاءت في القرآن الكريم تساعد المفسر على فهم النص، يضاف لذلك الوقوف عند الأساليب الرفيعة بمزاولة الكلام البليغ مع التفطن لمحاسنه والعناية بالوقوف على مراد المتكلم منه.

قائمة المصادر

- 1- الصاحبي في فقه اللغة لابن فارس ص 204
- 2- تهذيب اللغة للأزهري (عن) ج 3 ص 213
- 3- الصاحبي في فقه اللغة لابن فارس ص 192
- 4- لسان العرب لابن منصور (عنا) ج 19 ص 341
- 5- الصاحبي في فقه لابن فارس ص 193
- 6- لسان العرب (فسر) ج 6 ص 361، البرهان للزركشي ج 2 ص 142
- 7- الآية 7 من آل عمران
- 8- الصاحبي لابن فارس ص 193، لسان العرب (أول) ج 13 ص 25
- 9- تهذيب اللغة للأزهري (عنى) ج 3 ص 213، لسان العرب (عنا) ج 19 ص 341
- 10- مناهل العرفان، في علوم القرآن لمحمد عبد العظيم الزرقاوي ج 2 ص 472
- 11- البرهان للزركشي ج 2 ص 149
- 12- لسان العرب لابن منصور (أول) ج 13 ص 34-35
- 13- النهاية في غريب الحديث ج 1 ص 80، اللسان ج 13-35
- 14- البرهان للزركشي ج 2 ص 146
- 15- مناهل العرفان للزرقاني ج 2 ص 471
- 16- نفسه ج 2 ص 502